

## 114969 - تفسير قوله تعالى : ( الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار )

### السؤال

الآية رقم : (16) من سورة آل عمران ، والآية التي تليها : (الذين يقولون ربنا إنا ءامنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) . أريد منكم أعزكم الله تفسير الآيتين ، وتفسير الآية (15) التي بدايتها ( قل أُوْنِبْتُكُمْ ) وربط المعنى العام ، وهل الصبر يليه في المنزلة الصدق ، ثم القنوت ، ثم الإنفاق في سبيل الله ، ثم الاستغفار ، أم ماذا ؟

### الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولاً : تفسير السياق .

هذه الآيات جاءت في سياق المقارنة بين شهوات الدنيا ونعيم الآخرة ، فبعد أن ذكر الله عز وجل متاع الدنيا وما زين للناس فيها من ملذات ، شرع في ذكر نعيم الآخرة ، وأنه هو النعيم الحقيقي ، والسعادة الأبدية ، وقد بدأ الله عز وجل هذا السياق بصيغة الاستفهام التشويقي ، فقال سبحانه وتعالى : ( قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقْنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ) آل عمران/15-17 .

فمتاع الآخرة خالٍ من كل أذى وكدر ، فإذا كان في الدنيا نساء وبنين ، ففي الآخرة أزواج مطهرة من كل ما ينفر من نساء الدنيا ، وفي هذا الوصف ارتفاع حقيقي على شهوات الأرض وملذاتها .

وأعظم من ذلك كله ( رضوان من الله ) يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى ، فهو أعظم نعيم يتنعم به أهل الجنة ، أن يحل عليهم رضوان الله وحبه ولطفه فلا يشقون بعده أبداً .

ثم شرع سبحانه في بيان حقيقة العباد الذي يستحقون هذا النعيم الكبير ، وهو سبحانه بصير بهم جميعاً ، فقال سبحانه : ( الذين يقولون ربنا إنا آمننا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار )

وقولهم هذا ليس مقصوداً لذاته ، وإنما المقصود ذلك الإيمان والإقبال على الله تعالى ، الذي يحيل حياة المؤمنين إلى تعلق تام بالله عز وجل ، وذل وانكسار بين يديه سبحانه ، حتى تغدو مغفرة الذنوب ، والوقاية من النار أعلى أمانى هؤلاء العباد المؤمنين .

يقول ابن القيم رحمه الله : " أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا ، ثم شَوَّق عباده إلى متاع الآخرة ، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال : ( قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ .

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال : ( الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ) ، فأخبر سبحانه أن ما أعد لأولياته المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا ، وهو نوعان : ثواب يتمتعون به ، وأكبر منه وهو رضوانه عليهم ، قال تعالى : ( اَعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ) ، فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولي البصائر ، وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان ، واللعب واللهو لا حقيقة لهما ، وأنهما مشغلة للنفس ، مضيعة للوقت ، يُقطع بها الجاهلون ، فيذهب ضائعاً في غير شيء " انتهى . " عدة الصابرين " (ص/168) .

ثانيا : تفسير المفردات .

ذكر سبحانه وتعالى أوصاف عباده المتقين الذين أعد لهم في الجنة من النعيم ما لا يقارن بنعيم الدنيا ، وذكر هذه الأوصاف ترغيباً في التحلي بها ، والمحافضة على مضامينها .

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله : " يصف تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل ، فقال تعالى : ( الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا ) أي : بك ، وبكتابك ، وبرسولك .

( فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ) أي : بإيماننا بك وبما شرعته لنا ، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك . ( وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ )

ثم قال : ( الصَّابِرِينَ ) أي : في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات .

( وَالصَّادِقِينَ ) فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمون من الأعمال الشاقة .

( وَالْقَانِتِينَ ) والقنوت : الطاعة والخضوع .

( وَالْمُنْفِقِينَ ) أي : من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقربات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوي الحاجات .

( وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ) دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار ، وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لابنيه : ( سَوْفَ

أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ) يوسف/98 ، أنه أخرجهم إلى وقت السحر ، وثبت في الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن من غير وجه

، عن جماعة من الصحابة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا

حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ . فيقولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأَعْطِيهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ) الحديث "

انتهى .

ثالثا : البلاغة والبيان .

ونبين هنا بعض الأمور البلاغية والبيانية في قوله سبحانه : ( الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين

بالأسحار ) ، على طريقة السؤال والجواب ، مسترشدين بكلام أهل العلم المفسرين .

1- لماذا ذكر الله تعالى هذه الأوصاف دون غيرها من أوصاف المؤمنين ؟

يبين بعض المفسرين أن هذه الأوصاف الخمسة هي التي تجمع وتشمل جميع مقامات العبودية والمعاملة مع الله تعالى .  
يقول الإمام البيضاوي رحمه الله : " ( الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ) : حصرٌ لمقامات  
السالك على أحسن ترتيب .

فإن معاملته مع الله تعالى : إما توسل ، وإما طلب .  
والتوسل : إما بالنفس : وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل ، والصبر يشملهما . وإما بالبدن : وهو إما قولِي : وهو  
الصدق .

وإما فعلي : وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة .

وإما بالمال : وهو الإنفاق في سبيل الخير .

وأما الطلب : فبالاستغفار ؛ لأن المغفرة أعظم المطالب ، بل الجامع لها .

"تفسير البيضاوي" (2/16)

ويقول العلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله : " ذكر هنا أصول فضائل صفات المتدينين ، وهي :

الصبر : الذي هو ملاك فعل الطاعات وترك المعاصي .

والصدق : الذي هو ملاك الاستقامة وبث الثقة بين أفراد الأمة .

والقنوت : وهو ملازمة العبادات في أوقاتها ، وإتقانها ، وهو عبادة نفسية جسدية .

والإنفاق : وهو أصل إقامة أود الأمة بكفاية حاجة المحتاجين ، وهو قرينة مالية ، والمال شقيق النفس .

وزاد الاستغفار بالأسحار : وهو الدعاء والصلاة المشتملة عليه في أواخر الليل ، والسحر سدس الليل الأخير ؛ لأن العبادة فيه

أشد إخلاصاً ، لما في ذلك الوقت من هدوء النفوس ، ولدلالته على اهتمام صاحبه بأمر آخرته ، فاختر له هؤلاء الصادقون

آخر الليل لأنه وقت صفاء السرائر ، والتجرد عن الشواغل " انتهى . "التحرير والتنوير" (3/43) .

2- لماذا جاءت هذه الأوصاف بالترتيب المذكور ، هل لذلك سبب معين ، وهل يدل ذلك على تفاضل هذه المقامات ، أم أنها  
مقامات متساوية ؟

قد يبدو للمتأمل أن هذا الترتيب جاء بسبب تفاضل المقامات المذكورة :

فالصبر يقتضي حبس النفس على الطاعات وترك المعاصي ، ولكن حبس النفس لا يؤجر عليه المرء إلا إذا كان صادقاً

مخلصاً لله تعالى ، فبدأ بـ " الصابرين " ثم : " والصادقين " .

ثم قد ينقطع العبد عن صبره وصدقه ، فيكسل عن العبادة ، ويتأخر عن الترقى في مراتبها ، فجاء وصف القنوت ، وهو الدوام

على العبادة والاستقامة ، فقال سبحانه : " والقانتين " ، ثم سمى سبحانه وتعالى بعض الطاعات التي أوجبت لهم أوصاف

التقوى والصبر والمرتبة العالية : فذكر عز وجل : ( المنفقين والمستغفرين بالأسحار ) .

يقول الفخر الرازي رحمه الله : " اعلم أن لله تعالى على عباده أنواعاً من التكليف ، والصابر هو من يصبر على أداء جميع

أنواعها .

وكمال هذه المرتبة أنه إذا التزم طاعة أن يصدق نفسه في التزامه ، وذلك بأن يأتي بذلك للملتزم من غير خلل ألبتة ، ولما

كانت هذه المرتبة متأخرة عن الأولى ، لا جرم ذكر سبحانه الصابرين أولاً ، ثم قال : ( الصادقين ) ثانياً .  
ثم إنه تعالى ندب إلى المواظبة على هذين النوعين من الطاعة ، فقال : ( والقانتين ) .  
فهذه الألفاظ الثلاثة للترغيب في المواظبة على جميع أنواع الطاعات .  
ثم بعد ذلك ذكر الطاعات المعينة ، وكان أعظم الطاعات قدراً أمران :  
أحدهما : الخدمة بالمال ، فذكر هنا بقوله : ( والمنفقين ) .  
والثاني : الخدمة بالنفس ، فذكره هنا بقوله : ( والمستغفرين بالأسحار ) .  
فإن قيل : فلم قدم ههنا ذكر المنفقين على ذكر المستغفرين ؟  
قلنا : لأن هذه الآية في شرح عروج العبد من الأدنى إلى الأشرف ، فلا جرم وقع الختم بذكر المستغفرين بالأسحار " انتهى  
باختصار . "مفاتيح الغيب" (7/176-177) .  
هذا وقد ذكر المفسرون كلاماً دقيقاً في سر العطف بالواو بين هذه الأوصاف ، لا نحب أن نطيل به على القارئ الكريم ، فمن  
أحب الاستزادة منه فليرجع إلى التفاسير السابق ذكرها في هذا الجواب .  
والله أعلم .